المدرسة الظاهرية بدمشق

(دار الكتب الظاهرية)

د. عزة حسن

تمهيد:

كان الجامع يقوم مقام المدرسة في العالم الإسلامي اقتداءً بالرسول ﷺ، لأن مسجده في المدينة المنورة كان المدرسة الأولى في الإسلام، علّم فيه أصحابه أمور دينهم. وظلّ المسجد كذلك بعد الرسول ﷺ في عهد خلفائه، حتى صارت المساجد بعد ذلك مدارس للعلم في كل العصور في تاريخ الإسلام. فيها كانت تقام الصلوات، وتعقد حلقات الدرس. وكان الشيوخ وصدور العلماء يتصدّرون للتدريس فيها، فيختلف إليهم طلبة العلم من كل حدب وصوب، ويجلسون في حلقات دروسهم لأخذ العلم منهم في مراكز الثقافة الكبرى، مثل المدينة المنورة والبصرة والكوفة وبغداد ودمشق والفسطاط في مصر، والقيروان في إفريقية وفاس في المغرب وغيرها من مراكز العلم المشهورة في الإسلام.

وظلَّ أمر التعليم مرتبطًا بالمساجد إلى أواسط القرن الخامس من الهجرة حين أخذت الدولة في إنشاء المدارس خارج حدود المساجد، وصارت تشرف عليها بنفسها، وتعيّن لها الأساتذة المدرسين. وكان الوزير المشهور نظام الملك، وزير السلطان ملكشاه السلجوقي، أولَ من فكر بإنشاء مدرسة في العالم الإسلامي. فقد أمر ببناء المدرسة النظامية ببغداد سنة (٤٥٧هـ) لتخريج الرجال الذين تحتاج إليهم الدولة في وظائفها المختلفة. وهكذا ظهرت في العالم الإسلامي مؤسسة ثقافية جديدة هي المدرسة بشكل هندسي جديد يختلف عن الجامع، ويصلح مع ذلك للتدريس والصلاة معًا. وقد أُحْدِثَتْ في المدرسة عناصر لم تكن موجودة في الجامع، لمنافع أخرى غير الصلاة والتدريس، مثل وجود حجرات لسكن الأساتذة

والطلبة. ثم صارت المدرسة بعد حين من الدهر تضم تُرْبة خاصة، عليها قُبَّة يدفن فيها منشئ المدرسة في أغلب الأحيان.

ولما استولى السلاجقة على بلاد الشام، وحكمها أتابكتهم أواخر القرن الخامس من الهجرة أدخلوا فكرة المدرسة الجديدة إلى هذه البلاد، فبُنيت في عهدهم عدة مدارس في دمشق مثل المدرسة الصادرية والبلخية والأمينية. وقد اشتهر نور الدين محمود بن زَنْكي خاصة، وهو آخر أتابكة السلاجقة في بلاد الشام بحبه للعمران، واجتهاده في بناء المدارس في شتّى أنحاء البلاد التي حكمها. ثم شهد القرن السادس من الهجرة الإكثار من بناء المدارس، وضروبٍ أخرى من المنشآت الثقافية والاجتماعية العامة، كالخانقاه والرِّباط والبيمارستان. وكانت الغاية من إنشاء المدارس واحدة، وهي التعليم ونشر الثقافة دائمًا. وقد اختلفت مع ذلك في نوع التعليم. فكانت هناك مدارس للقرآن، ومدارس للحديث النبوي، وأخرى جامعة بين القرآن والحديث، ومدارس لمذهب واحد من المذاهب الإسلامية، ومدارس لمذهبين منها أو ثلاثة مذاهب أو أربعة.

وقد توسع الملوك الأيوبيون بعد السلاجقة في عمارة المدارس، فانتشرت في كل أنحاء البلاد التي دخلت في حكمهم. والسبب في ذلك أن الأيوبيين ورثوا الحكم الفاطمي في مصر، ثم أخذوا بلاد الشام. فكان غرضهم من التوسع في عمارة المدارس هو القضاء على المذهب الفاطمي الشيعي، وتخريج الموظفين من القضاة والعلماء وكُتَّاب الدواوين وغيرهم لخدمة الدين والدولة معًا. ولهذا كان عهد الأيوبيين عصر نهضة ثقافية جديدة في هذه البلاد. ومن أشهر المدارس التي شادها الأيوبيون المدرسة العادلية الكبرى بدمشق، بناها الملك العادل أخو صلاح الدين الأيوبي. وكانت مقر مجمع اللغة العربية بدمشق إلى عهد قريب.

ثم جاء المماليك بعد الأيوبيين، وورثوا عنهم حكم بلاد الشام ومصر، وساروا

على خطاهم في عمارة المدارس وغيرها من المنشآت. ومن أشهر المدارس التي شادها المماليك المدرسة الظاهرية بدمشق، صِنو المدرسة العادلية فيها، وموضوع دراستنا هذه. وهي اليوم مبنى دار الكتب الوطنية الظاهرية.

وكان أصحاب هذه المدارس الذين بنوها من الملوك يَقِفُون عليها الأوقاف الواسعة، من الدور والبساتين والأراضي الزراعية وغيرها من العقارات، لتقوم بنفقة من يعيش فيها من الأساتذة وطلبة العلم، وما يحتاجون إليه من طعام وكساء ومرتبات، ولِيُنَفق منها على أثاث البناء وترميمه وإصلاحه.

وتزدهي دمشق مثل غيرها من حواضر العالم الإسلامي بكثير من المدارس والمنشآت الثقافية التي بنيت في العهود المذكورة. وقد كانت مدارس العلم ومراكزه الأخرى منتشرة في كل حي من أحياء المدينة من جوار الجامع الأموي في قلب المدينة إلى سفح جبل قاسيون وحدائق الغوطة وغيرها من الضواحي القريبة والبعيدة.

* * *

موقع المدرسة الظاهرية:

ذكرنا آنفًا أنه بدأت في بلاد الشام ومصر نهضة ثقافية، وازدهرت الحركة العلمية فيها بسبب استقلال الأيوبيين ثم المماليك من بعدهم بحكم هذه البلاد، وإنشائهم دولة قوية ورثت كثيرًا من مظاهر الحكم والحضارة عن بغداد. وقد كانت دمشق قلب هذه الدولة الذي ينبض بالحياة والثقافة وضروب العلم. فأقبل الملوك والأمراء وسراة الناس على تشييد المدارس وغيرها من المنشآت الثقافية العامة فيها كما بينَّا في المقدمة.

وكان معظم هذه المباني الثقافية يقوم في المنطقة المحيطة بالجامع الأموي في قلب المدينة، ولاسيما في حي الكَلاّسة الكائن في الجهة الشمالية من الجامع ممتدًا

من الغرب إلى الشرق وسط المدينة. وقد تجمع في هذا الحي وحده نحوُ عشرين معهدًا علميًّا، حتى صار بمثابة الحي الثقافي، أو المدينة الجامعية، لمدينة دمشق في القرون الوسطى الإسلامية. ومن أشهر المدارس التي بُنيت في هذا الحي:

١– المدرسة الصادرية: وهي أول مدرسة أنشئت في دمشق. بناها الأمير شجاع الدولة صادر بن عبد الله سنة (٤٩١هـ). وقد اندثرت ولم يبق منها شيء اليوم.

٢– مدرسة الكَلاّسة: بناها نور الدين محمود بن زَنْكي سنة (٥٥٥هـ). وسُمّيت بالكلاّسة لأنها أنشئت قرب مكان عمل الكلس عند الجامع الأمويّ، وقد اندثرت أيضًا.

٣– المدرسة العزيزية: بُنيت سنة (٥٩٢هـ)، ونُسبت إلى الملك العزيز بن صلاح الدين. وهي تضم تربة السلطان صلاح الدين. وقد تهدمت ولم يبق منها سوى التربة وأحد الأقواس الكبرى وبعض العناصر الجزئية.

٤– المدرسة الفاضلية: بناها القاضي الفاضل وزير السلطان صلاح الدين الأيوبي. واستمرّ نشاطها العلمي إلى القرن العاشر من الهجرة. وهي اليوم متهدمة تشاهد بقاياها خلف تربة صلاح الدين.

٥– المدرسة العادلية الكبرى: اشترك في بنائها الملك العادل نور الدين محمود والملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب. وتضم تربة هذا الملك الأخير المتوفى سنة (٦١٥هـ). وكانت مقر مجمع اللغة العربية بدمشق إلى عهد قريب.

٦– المدرسة الجقمقية: بناها الأمير سيف الدين جقمق سنة (٨٢٤هـ). وقد رمَّمتها المديرية العامة للآثار والمتاحف بدمشق، وجعلت منها متحفًا للخط العربي.

وإذا أضفنا إلى هذه المعاهد الثقافية التُّرَبَ العديدة الموجودة في هذا الحي التي كانت تُستخدم للتعليم أيضًا، وحلقات الدرس المختلفة التي كانت تعقد في أرجاء الجامع الأموي، أمكننا أن نقدر مدى ما كان يشيع في هذا الحي من حركة علمية مزدهرة، وكيف كان يعج بالأساتذة وطلبة العلم الذين كانوا يَفِدُون إليه من شتى أنحاء البلاد.

والمدرسة الظاهرية هي إحدى المدارس الكبرى الكائنة في هذا الحي الثقافي. تقع في الجهة الشمالية الغربية من الجامع الأموي عند تقاطع شارع الكلاّسة بشارع باب البريد وبمساواة البوابة الرومانية الواقعة على خطوات من باب الجامع الغربي.

ويحدّ المدرسة من الجنوب شارع الكلاّسة، ومن الغرب شارع باب البريد الذي يفصلها عن المدرسة العادلية الكبرى. ويلاصقها من الشمال حمّام العَقيقي القديم الذي يُعرف الآن بحمّام الملك الظاهر، ويُجاورها من الشرق بيوت سكنية.

* * *

تاريخ المدرسة الظاهرية:

سُمِّيت المدرسة بالظاهرية باسم الملك الظاهر الذي دُفن فيها، وهو السلطان ركن الدين أبو الفتوح بَيْبَرْس البُنْدَقداري التركي، ملك مصر والشام، وهو أشهر سلاطين المماليك البحرية، وأول من وطّد ملكهم في بلاد الشام بعد زوال الدولة الأيوبية إثر دخول التتار دمشق أيام قائدهم هولاكو.

وأصل الملك الظاهر من أرض القِبْجاق في تركستان. أُخِذ صغيرًا وبِيع أسيرًا، فاشتراه الأمير علاء الدين آي تَكِين البُنْدقداري، فقبض الملك الصالح نجم الدين الأيوبي على البندقداري، وأخذ ركن الدين بَيْبَرْس، فكان من جملة مماليكه. ونشأ الظاهر شجاعًا ضاريًّا، وشهد وقعة المنصورة التي انهزم فيها الصليبيون في مصر، ثم

صار من قواد السلطان سيف الدين قُطُز، ثالث سلاطين المماليك، وأسهم معه في كسرة التتار في معركة عين جالوت في فلسطين سنة (٦٥٨هـ). وتَسَلَّم الحكم بعد مقتل السلطان قُطُز، وبويع سلطانًا على مصر والشام في السنة المذكورة[١]. فقضى على الفتن، وحارب الصليبيين، وفتح عددًا من البلاد واستخلصها من أيديهم، وأقرّ الأمن في البلاد طوال مدة حكمه الذي دام (١٧) عامًا. لذلك فهو يُعَدُّ المؤسس الحقيقي لدولة المماليك البحرية، وباني مجدها وعظمتها. وكان الملك الظاهر يحب الإصلاح والعمران، ويُكرم العلماء ويُقربهم ويأخذ بمشورتهم، فشيّد المدارس مثل غيره من السلاطين، وخُلّد اسمه على أكثر من حصن وقلعة ومدينة. وتوفي في المحرم سنة (٦٧٦هـ) بقصره الأبلق بدمشق، ودُفن في القلعة، ثم نُقل جثمانه ودُفن في تربته في المدرسة الظاهرية.

* * *

بُدئ ببناء المدرسة الظاهرية يوم السبت تاسع جمادى الأولى سنة (٦٧٦هـ) تجاه المدرسة العادلية الكبرى لتكون مدرسة وتربة للملك الظاهر في مكان دار قديمة تعرف بدار العَقيقي[٢]. ووضع أساس التربة خامس جمادى الآخرة من السنة نفسها كما وضع أساس المدرسة. وقد أمر بالبناء الملك السعيد بن الملك الظاهر الذي تولى السلطنة بعد أبيه، وجعلها على الحنفية والشافعية، وأقام فيها دار حديث، أي مدرسة خاصة لرواية الحديث النبوي وتدريسه.

إلا أنه اضطر إلى خلع نفسه سنة (٦٧٨هـ)، وبُويع أخوه سَلامش سلطانًا مكانه، وكان في السابعة من عمره، فخلعه أتابَكُه سيف الدين قَلاوون واستولى على الحكم، ولقب نفسه بالملك المنصور.

---

(1) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص (٣٤٩– ٣٥٠).

(2) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص (٣٤٩).

ولم يكن بناء المدرسة الظاهرية قد تمّ، فأمر السلطان قلاوون بإتمامها. وقد كُتب اسم البانيين في الكتابة المرقومة فوق الباب الرئيس، وجاء فيها: ((بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بإنشاء هذه التربة المباركة والمدرستين المعمورتين[٣] المولى السلطان الملك السعيد أبو المعالي محمد بركة قان ابن السلطان الشهير الملك الظاهر المجاهد ركن الدين أبي الفتوح بَيْبَرْس الصالحي. أنشأها لدفن والده الشهير، ولحق به عن قريب، فاحتوى الضريح على ملكين ظاهر وسعيد. وأمر بإتمام عمارتها السلطان المنصور سيف الدنيا والدين قَلاوون الصالحي قسيم أمير المؤمنين خلَّد الله سلطانه)).

وفي يوم الأربعاء الثالث عشر من صفر سنة (٦٧٧هـ) افتُتحت المدرسة الظاهرية، وأُلقي فيها أول درس، مع أنَّ بناءها لم يكن قد كمل. وقد حضر درس الافتتاح الأمير آيدَمِير الظاهري نائب السلطنة بدمشق[٤]، وكان الدرس حافلاً حضره القضاة وخلق كثير. وكان مدرس الشافعية الشيخ رشيد الدين الفارقي في الإيوان الشرقي، ومدرِّس الحنفيّة الشيخ القاضي صدر الدين سليمان بن أبي العز في الإيوان القِبْلي[٥].

وقد وُقِفَتْ على المدرسة الظاهرية أوقاف كثيرة من القرى والبساتين وغيرها من العقارات، كما هو مرقوم في الكتابة الظاهرة في أعلى الباب الخارجي. ونستدل من كثرة هذه الأوقاف على أنَّ الظاهرية كانت تتمتع بموارد وفيرة من المال تسدّ حاجة المدرسة والقائمين عليها وطلبة العلم الذين يعيشون فيها، وتوفر لهم الوقت، وتكفيهم مؤونة السعي في طلب العيش للانصراف إلى العلم والدرس.

(3) يريد بالمدرستين المدرسة الظاهرية ودار الحديث الملحقة بها في الزاوية الجنوبية الشرقية.

(4) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص (٣٥١).

(5) المصدر نفسه.

وقد مكّنت هذه الأوقاف ذات الريع الوفير المدرسة الظاهرية من خدمة العلم، وأداء رسالتها الثقافية خلال مدة طويلة من الزمن، امتدت خمسة قرون، من أواخر القرن السابع إلى أواخر القرن الثاني عشر من الهجرة. ونعرف ذلك من استعراض أسماء الشيوخ والأساتذة الذين درَّسوا فيها خلال هذه السنين الطويلة في كتب تراجم العلماء بدمشق(٦).

غير أن أوقاف الظاهرية قد أهملت في القرون المتأخرة، فخرب بعضها ودرس، ووضع بعض الطامعين أيديهم على ما تبقى منها. وتُركت المدرسة وحدها تواجه عواديَ الزمن، فأصابها الخراب وتداعت بعض أقسامها، ولاسيما القسم الشمالي الملاصق لحمّام العَقيقي. ويبدو أن الرطوبة الناشئة من الحمّام قد أثّرت في أجزاء هذا القسم وسهّلت تداعيها واندثارها، ولهذا تضاءل شأن المدرسة الظاهرية في القرن الثالث عشر من الهجرة حتى آل أمرها إلى كتّاب اقتصر شيوخها فيه على تعليم الصبية الصغار وإقرائهم القرآن الكريم، ففقدت مكانتها العالية، وأضاعت مجدها القديم. وهذا هو السبب في أن كتب تراجم العلماء للقرن الثالث عشر لم تذكر اسم شيخ واحد درّس في الظاهرية أو سمع فيها في هذا القرن(٧).

والظاهر أن تطور الحضارة وتغيّر أسس التربية والتعليم في هذا القرن، وهو يوافق القرن التاسع عشر للميلاد، هو السبب، إلى جانب خراب أوقافها وضِياعها، في إهمال المدرسة الظاهرية التي كانت تتبع النظم القديمة في التعليم لتدريس المذهبين الحنفي والشافعي ورواية الحديث النبوي.

* * *

---

(6) انظر مثلاً ابن العماد، شذرات الذهب ج٥ ص (٣٥٧، ٤٠٨، ٤٣١) والنعيمي، الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص (٣٣، ٥٦، ١٣٥، ٣١١، ٣٥١).

(7) مثل كتاب عبد الرزاق البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر.

ثم طرأ على الظاهرية طارئ أعادها إلى الحياة بوجه جديد في أواخر القرن التاسع عشر للميلاد فقد انقلبت إلى مكتبة عامة تضم مجموعات من الكتب المخطوطة والمطبوعة من تراث العرب والإسلام، وتؤدي رسالتها الثقافية بروح جديدة. وحكاية ذلك أنه هبط دمشق في أواخر هذا القرن الوالي العثماني المشهور مدحة باشا، وكان ذكيًّا لامعًا، يحب الإصلاح والعمران، ويسعى في نشر العلم والمعرفة، فألّف من علماء البلد جمعية سمّيت بالجمعية الخيرية برئاسة الشيخ علاء الدين عابدين، ومن أعضائها علاّمة الشام الشيخ طاهر الجزائري، مفتش المعارف في ولاية سورية، وأسند إليها أمر العناية بالتعليم وإنشاء المدارس في البلاد(٨). فأشارت الجمعية على الوالي مدحة باشا بجمع كنوز المخطوطات الموقوفة على مدارس دمشق، ووضعها في مكان واحد صونًا لها من التلف والضياع، بعد أن فُقد قسم كبير منها نتيجة السرقة والاختلاس، فكتب بذلك إلى السلطان عبد الحميد، وحصل منه على قرار بجمع المخطوطات في مكتبة عامة يكون مقرّها في تربة الملك الظاهر لمتانتها ولياقتها لتلك الغاية(٩).

وعلى هذا جُمعت المخطوطات من عشر مدارس مختلفة في دمشق، ووُضعت في الظاهرية التي سمّيت بالمكتبة العمومية، وصنّفت الكتب فيها حسب موضوعات العلوم، وصُنع لها فهرس بأسماء الكتب، طُبع على غرار فهارس المكتبات في إستانبول(١٠). وافتُتحت المكتبة سنة ١٨٨١م في قبة الملك الظاهر التي صارت مقرًّا للكتب وقاعة للمطالعة في وقت واحد، ووُضعت تحت إشراف جماعة من العلماء

---

(8) ابن بدران، منادمة الأطلال ص (١١٩– ١٢٠).

(9) ابن بدران، منادمة الأطلال ص (١٢٠– ١٢١).

(10) في الظاهرية نسخة من هذا الفهرس المطبوع في العهد العثماني.

باسم جمعية المكتبة العمومية. وسمّيت الظاهرية بدار الكتب العربية في عهد الحكومة العربية التي قامت في سورية سنة ١٩١٩م، ثم دُعيت بدار الكتب الوطنية الظاهرية. وقد تطورت واتسعت مع الزمن، وكثرت مقتنياتها من المخطوطات والمطبوعات النادرة حتى صارت إحدى أشهر دور الكتب في العالم العربي، وغدت موئل الباحثين والدارسين في عاصمة الأمويين.

هندسة المدرسة الظاهرية:

مهندس الظاهرية الذي أشرف على بنائها هو إبراهيم بن غانم كما يظهر في الكتابة المرقومة في الزاوية الشمالية في أعلى المدخل الرئيس للمدرسة، ونصها:

«عمل إبراهيم بن غانم». وقد سار هذا المهندس في بناء الظاهرية على تقاليد فن البناء الإسلامي العربي الماثلة في أبنية دمشق العامة ومدارسها المختلفة، ولاسيما بناء المدرسة العادلية الكبرى المقابلة للظاهرية، وهي من إنشاء الملك العادل أبي بكر بن أيوب أخي صلاح الدين(١١). وهي أقدم من الظاهرية.

ومن الواضح أن المهندس إبراهيم بن غانم قد سعى أن يجعل صرح الظاهرية شبيهًا بصرح العادلية وملائمًا له، وقد نجح في مسعاه كل النجاح، فجاء الصرحان متشابهين كأنهما آبدتانِ صِنْوانِ، يقفان وجهًا لوجه في قلب دمشق في روعة وجلال، ويغالبان عواديَ الزمن وأيدي الفناء، ويوحيان لرائيهما بالعظمة والصلابة والخلود.

ويؤلف مخطط بناء الظاهرية بمجموعه مع بناء دار الحديث التي كانت قائمة في الزاوية الجنوبية الشرقية منها شكلَ مربع تقريبًا، في وسطه فناء مكشوف مستطيل الشكل، طوله ثمانية عشر مترًا وعرضه اثنا عشر مترًا. وتحيط بالفناء الأواوين الثلاثة، من كل جهة إيوان، ويُضاف إليها قوس المدخل الرئيسي، فتكون

(11) ابن بدران، منادمة الأطلال ص (١٢٤).

أربعة أواوين متقابلة على الطريقة المعروفة المتبعة في فن البناء الإسلامي العربي.

وجعل المهندس إبراهيم بن غانم للظاهرية جبهتين اثنتين، جبهة غربية على شارع باب البريد طولها اثنان وثلاثون مترًا، وأخرى جنوبية على شارع الكلاّسة تمتد إلى آخر تربة الملك الظاهر فحسب، وطولها ثلاثة عشر مترًا. والجبهة الغربية هي الرئيسة، وفي وسطها يقع المدخل الرئيس.

هذا هو المخطط الهندسي للمدرسة الظاهرية. فلننتقل الآن إلى وصف الأجزاء الباقية منها مبتدئين بالمدخل الرئيس.

المدخل الرئيس للبناء عريض، ويبلغ عرضه أربعة أمتار، وهو عال يشبه الإيوان، ارتفاعه عشرة أمتار، تعلوه نصف قبة داخلية، وعلى جانبيه دكتان مبنيتان بقطع كبيرة من الحجر المزّي الوردي اللون بارتفاع متر واحد تقريبًا.

وفي صدر المدخل على عمق مترين فتحة الباب الذي تعلوه خمسة سطور عريضة من الكتابات المرقومة بالخط النسخي المزهّر الجميل، ممتدة إلى جانبي المدخل، جاء في الأسطر العلوية منها ذكر أوقاف المدرسة، وفي السطرين السفليين تاريخ إنشاء المدرسة واسم الملك السعيد الذي أمر ببنائها، واسم السلطان سيف الدين قَلاوون الذي أمر بإكمال البناء. وقد ذكرنا نص هذه الكتابة في الفقرة السابقة.

وإلى يمين الداخل إلى فناء المدرسة تقع القبة العالية التي دُفن فيها الملك الظاهر وابنه الملك السعيد، وهي الجزء الرئيس من البناء، وأجمل ما فيه، بل هي من أجمل المدافن الملكية التي شادها المسلمون، وتعد لذلك آية من آيات الفن الإسلامي. ترتفع قبتها العالية نحو ثلاثين مترًا، وهي أعلى قبة في دمشق بعد قبة النسر في الجامع الأموي.

يُصعَد إلى باب القبة بدرجتين. وحول هذا الباب الموجه إلى الشمال إطار

مبني بالحجر الوردي اللون، وفيه زخارف من أشكال هندسية مؤلفة من خطوط متقاطعة. وفي أعلى الباب ثُبّتت قطعة من الحجر الأبيض نُقش عليها أربعة أسطر جاء فيها ذكر أوقاف التربة، وفي أعلاها اللوحة التذكارية لتحويل المدرسة إلى مكتبة عامة. وقد وُضعت في عهد والي الشام حمدي باشا الذي جاء بعد عزل مدحة باشا عن الولاية[١٢].

وقاعة القبة مربعة الشكل رُفعت جدرانها على شكل أواوين متقابلة مسدودة، طول ضلعها ثلاثة عشر مترًا. وقد اتبع المهندس طريقة الحَطّات المضلّعة للتوصل إلى إقامة القبة المستديرة فوق الجدران الأربعة، وبذلك ضاقت المساحة المحصورة بين الأضلاع مرة أخرى، وزاد الاقتراب من شكل الدائرة. وفوق هذه الحطات رفعت القبة الشاهقة الواسعة.

وفي صدر القاعة بُني محراب على العادة المتبعة في المدافن الإسلامية الكبرى لإمكان إقامة الصلوات فيها. وهو مزخرف زخرفة رائعة، كما أن المكان كله حافل بالزينة والزخرف. وسنتكلم على ذلك في الفقرة التالية.

وقد تعمّد مهندس البناء الإكثار من فتح الكُوى والنوافذ في جميع الجهات في القبة ليوفر لها أكبر قدر من نور الشمس وأشعتها في جميع ساعات النهار، فجعل في كل جدار من الجدران في الجهات الثلاث نافذتين كبيرتين، ما عدا الجهة الشمالية التي فيها الباب، وجعل في الثلث الأعلى من كل جدار في الجهات الأربع كُوّة مستديرة في الوسط بين النافذتين تمامًا، وجعل نافذتين اثنتين في كل ضلع من الأضلاع الأصلية الأربع في الحطة الأولى، فصار مجموع النوافذ في هذه الحطة ثماني نوافذ، وجعل نافذة واحدة في كل ضلع من أضلاع الحطة الثانية، ومجموعها ست عشرة نافذة. وبذلك استطاع المهندس أن يوفر للقاعة نورًا كافيًا

(12) ابن بدران، منادمة الأطلال ص (١٢١).

في كل ساعات النهار كما قلنا، وأن يسمح لأشعة الشمس بالدخول إليها من مطلع الشمس إلى مغربها.

وفي وسط هذه القاعة تحت القبة العالية المشرقة دائمًا يرقد الملك الظاهر وإلى جانبه ابنه الملك السعيد تحت أطباق ضريحهما المنحوت من المرمر الأبيض. وكانت القاعة تُستخدم مقرًا للمخطوطات الموجودة في دار الكتب الظاهرية، وقد أُحيط ضريح الظاهر والسعيد بخزائن المخطوطات وكأنها تؤنس روحيهما طوال الأيام والليالي في رقدتهما الأبدية.

وإلى الشرق من التربة يقع الإيوان القِبْلي ملاصقًا لها، وهو إيوان الحنفية في المدرسة، أي قاعة الدرس التي تلقى فيها الدروس والمحاضرات في الفقه وغيره من العلوم الإسلامية على المذهب الحنفي. وبناؤه مستطيل الشكل طوله ثلاثة عشر مترًا، وعرضه ثمانية أمتار ونصف متر. وفي صدره محراب ساذج خال من كل زينة وزخرف. وقد بقي هذا الإيوان سليمًا كما كان على حالته الأولى بقوسه العالية، إلا أن فجوة القوس فيه قد سُدّت، وتُرك فيها باب صغير وأربع نوافذ. ويُستخدم هذا الإيوان الآن مقرًّا للكتب المطبوعة في دار الكتب الظاهرية.

وفي الجهة الشرقية من الفناء وقبالة المدخل الرئيس يقع الإيوان الشرقي للمدرسة، وهو إيوان الشافعية، أي قاعة الدرس التي تُلْقَى فيها الدروس والمحاضرات في الفقه وغيره من العلوم الإسلامية على المذهب الشافعي. وبناؤه مربع الشكل طول ضلعه ثمانية أمتار ونصف متر. وفي جداره الجنوبي محراب ساذج للصلاة أيضًا، خالٍ من الزينة والزخرف. وقد سقط سقف هذا الإيوان، وتداعت الأقسام العلوية من جدرانه، إلا قطعة باقية من جنوب الجدار الغربي وحسب، كما سقطت قوسه الكبيرة، ولم يبق منها إلا ثلاثة أحجار من قطاعها الجنوبي مستندة إلى الجزء الباقي من الجدار الغربي. وقد سُدّ هذا الإيوان بجدار من

الحجر فيه باب ونافذتان كبيرتان، في أواخر القرن التاسع عشر. ويُستخدم الآن مقرًّا أيضًا للكتب المطبوعة في دار الكتب الظاهرية. وفي السنوات الأخيرة بُني فوق هذا الإيوان، وفي مكان دار الحديث، وقطعة الأرض المستملكة خلفهما، الجناحُ الشرقي الجديد لدار الكتب الظاهرية.

وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من بناء الظاهرية بين الإيوان القِبْلي والإيوان الشرقي كانت تقوم دار الحديث الملحقة بالمدرسة الظاهرية. وقد أُجريت عليها تعديلات عديدة خلال العصور، وانتهى بها الأمر إلى أن صارت دار سكن في القرن الماضي. وما زالت كذلك حتى أُزيلت تمامًا في السنوات الأخيرة حين توسيع دار الكتب الظاهرية وبناء جناحها الشرقي الجديد. ولم يبق منها شيء الآن سوى القوس الصغيرة لمدخلها الظاهر إلى جانب قوس الإيوان الشرقي للمدرسة.

أما الإيوان الشمالي للمدرسة فقد تهدّم بتمامه، ولم يبق منه شيء ولا من عناصر الجناح الشمالي كله. وقد أُقيم في هذا الجناح بناء حديث مؤلف من طابقين في أواخر القرن التاسع عشر حين استُخدمت الظاهرية مدرسة ابتدائية، ولذلك لا ندري على وجه الضبط شكل البناء الذي كان في هذا الجناح، ولا نشك في أنه كان فيه إيوان يقابل الإيوان الجنوبي، ويُماثله حسب الخطة الهندسية المعروفة في فن البناء الإسلامي المتميّز بوجود أربعة أواوين متقابلة حول المساحة المتوسطة في الأبنية التاريخية.

على أنه من العسير معرفة الشكل الهندسي الأصلي القديم بتمامه للجناحين الشرقي والشمالي للمدرسة الظاهرية إلا إذا هدمت الأقسام المبنية حديثًا فيهما، وفُرّغت تمامًا، وكُشفت الأسس القديمة فيهما لتحديد معالم البناء الأصلي.

فن العمارة في المدرسة الظاهرية:

إن طابع التقشف والجد والصرامة والبعد عن الزخرف والزينة هو الغالب على مجموع بناء المدرسة الظاهرية سوى تربة الملك الظاهر. والحقيقة أن مجموع البناء قد أُقيم بأحجار كبيرة غشيمة غير منحوتة سوى الجبهتين الغربية والجنوبية، وهو يذكرنا، بمدخله الضخم وحجارته الكبيرة وجدرانه العالية، بمنظر القلاع والحصون الحربية، ولا شيء فيه يدعونا إلى أن نتصور للوهلة الأولى أنه بُني ليكون مدرسة للعلم والمعرفة. فحيثما نقلنا أنظارنا رأينا جدرانًا ضخمة بُنيت بأحجار كبيرة صمّاء، حتى إن عقود الأواوين نفسها قد أُقيمت بالحجارة الكبيرة الغشيمة التي بُنيت بها الجدران، خالية تمامًا من كل زخرف أو تلوين بالأحجار المختلفة الألوان سوى المدخل الرئيس.

وهذا هو طابع البناء الذي ساد في الأبنية التاريخية على عهد الأتابكة من السلاجقة والأيوبيين وأوائل عهد المماليك من بعدهم. ويبدو لنا أن طول أمد الحرب الصليبية في هذه العصور، واضطرار الحكّام فيها والأمة من ورائهم إلى الجهاد والمواجهة العسكرية الدائمة لأعدائهم من الصليبيين هو السبب في طبع الأبنية في هذه العصور بطابع القوة والصرامة، فلما انتهت الحروب الصليبية، واستقرّت البلاد وأَمِنَتْ، مال المهندسون والفنانون في عصر المماليك، منذ بداية القرن الثامن من الهجرة، إلى الاهتمام بالأناقة والزينة في بناء الدُّور والمدارس وغيرها من المنشآت، ويتجلّى ذلك مثلاً في المدرسة الجقمقية التي بناها الأمير جقمق نائب السلطنة بدمشق سنة (٨٢٣هـ)، أي بعد قرن ونصف من بناء المدرسة الظاهرية، وهي قريبة منها تقع وراء الباب الشمالي للجامع الأموي. ومن الطبيعي أن تزدهر الفنون في أيام السلم والاستقرار، ويميل الناس إلى الترف والزينة، فالمدرسة الجقمقية بزخارفها، حافلة بأنواع الزينة في جميع أقسامها، ولا يضاهيها في ذلك أي بناء، وتبدو لذلك كأنها قصر للسكن، لا مدرسة يُقيم فيها أساتذة وطلاب.

فن الزخرف في المدرسة الظاهرية:

لا تُعَدُّ المدرسة الظاهرية بمجموعها أثرًا غنيًّا بالزخرف والزينة إذا استثنينا منها المدخل الرئيس وتربة الملك الظاهر، فقد تجمعت زخارف الظاهرية وزينتها في هذين الموضعين من بنائها، مع العناية بعض الشيء بالجهتين الغربية والجنوبية. وهذه الزخارف منها ما هو معماري يقوم على نحت الحجر ونقشه وتقطيعه، ومنها ما هو زخارف جدارية غايتها كسوة الجدران الداخلية المبنية بالأحجار الغشيمة، وتزيينها باللوحات الفنية المؤلفة من الرخام والفسيفساء. فلننظر الآن إلى هذه الأقسام الثلاثة من بناء الظاهرية لنرى ما فيها من الزخارف:

١– الجبهتان مشيّدتان بالأحجار الكبيرة المنحوتة بإتقان، وتنتهيان في أعلاهما بطُنُف مشرف قليلاً، يبدو كالإطار لهما، وتبدوان جميلتين مشرقتين، بل هما من أجمل ما بنى المماليك من أوابد البناء. وفي وسط الجبهة الجنوبية وهو الجدار الجنوبي لتربة الملك الظاهر، ووسط القسم الجنوبي من الجبهة الغربية وهو الجدار الغربي للتربة كوّة مستديرة تقوم مقام النافذة، وتُحيط بها زخارف من أشكال هندسية مؤلفة من دوائر متداخلة حُفِرت في الحجر بإتقان ونظام.

٢– والمدخل الرئيس مزيّن بزخارف معمارية أيضًا، ويبدو كأنه لوحة فنيّة عُلِّقت في وسط الجبهة الغربية، وقد امتزج فيها اللون الأبيض باللون الأسود، لأنّ المهندس قصد الموالاة بين مداميك البناء، فجعل مدماكًا من الحجر الأبيض ثم مدماكًا من الحجر الأسود، فتوالت المداميك بين بيضاء وسوداء كأنها سطور في صحائف بيضاء، واستطاع المهندس بذلك أن يبعث في الحجارة الصمّاء حياة خاصة، وأن يعطيها حركة دائمة، يحسُّ بها الإنسان، ولكنه لا يدرك كنهها، وهذا هو السر العبقري الكامن في الفن الأصيل. وتبدو سطور الكتابة بين مداميك البناء كالأحزمة المنقوشة المزينة بالجواهر الكريمة. ولهذه الكتابة غرض تاريخي وآخر

تزييني. وينتهي المدخل في أعلاه بنصف قبة داخلية معقودة بمقرنصاتٍ بديعة، مؤلفة من عدة طبقات فيها قبيبات وشمعدانات مدلاّة ومحاريب تتوّجها جميعًا صَدَفَة مضلّعة.

٣– أما التربة فهي الموضع الوحيد الحافل بالزخارف والزينة في المدرسة الظاهرية، والزخارف هنا جدارية، والمادة الأساسية المستعملة فيها هي الرخام ثم الفسيفساء، والغرض منها هو تغطية الجدران وتزيينها. ونلاحظ السخاء المفرط في استخدام الرخام هنا، حتى إن القاعة لتبدو كأنها معرض حافل بالرخام من كل نوع وكل لون، وقد عمد الفنانون الذين تولَّوا تزيين القاعة إلى تأليف لوحات فنية ذات موضوعات هندسية، تتناظر فيها الأشكال والألوان في كل المساحات الفارغة في الجدران.

وتبدأ الزخارف من الباب مباشرة، فهناك لوحتان متناظرتان على جانبي الباب من الداخل في الجدار الشمالي، ومؤلفتان من قطع مربعة ومستطيلة ذات أحجام وألوان مختلفة من الرخام، بين أبيض ووردي وأسود معرّق وأخضر معرّق أيضًا. وهناك لوحتان أخريان متناظرتان، وهما أكبر من الأوليين، شكلهما مربع طول ضلعه متران وخمسة وثمانون بالمئة من المتر. إحداهما في الجدار الغربي بين النافذتين، والثانية في الجدار الشرقي، وما يلفت النظر في هاتين اللوحتين هو أنه تتوسط كل واحدة منهما لوحة كبيرة من الرخام النادر الوردي اللون بطول متر وثمانين بالمئة من المتر وعرض ثمانين بالمئة من المتر.

وهناك لوحات أخرى مؤلفة من الرخام الملون أيضًا، وهي متشابهة ومتناظرة تغطي وجوه قوائم الأركان الأربعة للقاعة، وفي أعلاها أحزمة من النقوش والزخارف الهندسية الملونة بكل لون. ونوافذ القاعة عالية، ترتفع إلى أربعة أمتار، وكلها ذات عقود مجزّعة بقطع الرخام الأبيض والأخضر والوردي.

وفي صدر القاعة يوجد المحراب الذي يعدّ بحق من أجمل ما أنتجه الفن الإسلامي من المحاريب، وهو يؤلف بمجموعه لوحة فنية رخامية كبيرة رائعة الحسن، تتوسطها حنية المحراب المكسوة بقطع كبيرة نادرة من الرخام الملون، يحيط بها عمودان صغيران من الرخام الأخضر، وعلى الجانبين لوحتان متناظرتان من قطع الرخام بين أبيض وأسود وأخضر ووردي، نُظِمت وشُبِكت بعضها ببعض في أشكال هندسية جميلة، وقد كتب في أعلى هاتين اللوحتين الآية الكريمة التالية بخط نسخي جميل: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ﴾.[سورة التوبة الآية ١٨].

ويعلو هذه المجموعة من الزخارف تاج من نصف دائرة رخامية، مؤلف من قطع رخامية ملونة شُبِك بعضُها ببعض بطريقة ينشأ عنها صفوف من أشكال زهرة الزنبق، فيبدو التاج كله كأنه إكليل من زهور الزنبق الملون، ويطيف بإكليل الزنبق لوحة أو بساط من قطع الفسيفساء الصغيرة ذات الفصوص الهندسية الملونة التي تتألف منها لوحات هندسية مطعّمة بالصدف البراق.

وفي أعلى هذه اللوحات الفنية الرخامية وعلى دائر الجدران الأربعة بارتفاع ستة أمتار يمتد حزام زخرفي عريض من قطع الفسيفساء الذهبية اللون، وتتوالى في هذا الحزام الذهبي رسوم أشجار وأغصان وأزهار وجواسق فخمة، رُكّبت جميعها من قطع الفسيفساء الخضراء، فأضفت على المكان جوًا من البهجة والفرح، أما ما فوق ذلك من المسافة إلى أعلى قبة التربة فقد أخلي من الزخارف، وطُلي ببياض الكلس فحسب، فزاد ذلك من مسحة البهجة والفرح في جو التربة.

نتيجة:

والنتيجة أن المدرسة الظاهرية تُعَدُّ آبدة من أوابد الأبنية التاريخية التي أنتجها الفن الإسلامي العربي، وقد بُنيت في أوائل عهد المماليك مطلعَ الربع الأخير من

القرن السابع للهجرة، وأمر ببنائها الملك السعيد بن الملك الظاهر بَيْبَرْس لتكون تربة ومدرسة ودار حديث. وقد دُفن في التربة الملك الظاهر، ثم ابنه الملك السعيد إلى جانبه.

وبناء المدافن الخاصة للملوك والأمراء وأمثالهم والعناية بها وتجميلها عادةٌ إنسانية قديمة في التاريخ، ومتبعة عند أكثر الأمم قديمًا وحديثًا، وقد أهمل المسلمون هذه العادة القديمة في العصور الأولى للإسلام، لأنها لا تأتلف مع روح الدين الجديد، إلا أنّها ما لبثت أن عادت إلى الظهور في العصور التالية، وصار الملوك والأمراء يهتمون بمدافنهم، ويُقيمون لها أبنية خاصة فخمة، حتى صارت هذه المدافن جزءًا من بناء كبير مثل الجامع أو المدرسة، وغَصّت بها مدن العالم الإسلامي، ومع الزمن امتدت العناية بالمدافن إلى العناية بالمؤسسة التي تشتمل عليها كالجامع والمدرسة والتكية.

ويغلب على مجموع بناء المدرسة الظاهرية طابع الجد والتقشف، وتبدو كأنها قطعة من الأبنية الحربية، والسبب في ذلك أنها بُنيت في عهد كان العالم الإسلامي فيه ما يزال يعيش في جو الجهاد المرير الطويل الذي خاض غمراته لاسترداد أرضه وتحريرها من أعدائه الصليبيين، ونتيجة لذلك كله كانت المدرسة الظاهرية فقيرة بعناصر الزخرف والزينة إذا استثنينا المدخل الرئيس وتربة الملك الظاهر فيها كما بيَّنَّا آنفًا. ونُضيف إلى ذلك هنا أن هذه الآبدة قد بُنيت لتكون مدرسة لنشر العلم والمعرفة لا قصرًا ملكيًّا يسكنه أناس مترفون يطلبون زينة الحياة الدنيا.

هذا وقد دارت الأيام ومرّت العصور، يتلو بعضها بعضًا، وصرح الظاهرية المهيب، مدرسة كان أو مكتبة، مازال قائمًا وسط مدينة دمشق منارًا للثقافة العربية الإسلامية، وهو يشع نورًا وخيرًا، ويفيض بركة وبرًا، لأجيال تتلوها أجيال من أبناء دمشق وغيرها من بلاد العرب والمسلمين.

المصادر

١- حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر. تأليف الشيخ عبد الرزاق البيطار المتوفى بدمشق سنة (١٣٤٦هـ). بتحقيق الشيخ محمد بهجة البيطار. مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، سنة (١٩٦١- ١٩٦٢).

٢- الدارس في تاريخ المدارس: تأليف عبد القادر بن محمد النعيمي المتوفى سنة (٩٢٧هـ)، بتحقيق الأمير جعفر الحسني. مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، سنة (١٩٤٨- ١٩٥١).

٣- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: تأليف أبي الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي المتوفى سنة (١٠٨٩هـ)، طبعة مكتبة القدسي في القاهرة، سنة (١٣٥١هـ).

٤- منادمة الأطلال ومسامرة الخيال: تأليف الشيخ عبد القادر بدران المتوفى بدمشق سنة (١٩٦٠)، طبعة دمشق (من غير تاريخ).